الجهود التداوليَّة ل" الجاحظ " بين (سبق التأصيل وضعف التفعيل)

أ.محمَّد الحبيب منّادي
إشراف أ.د : صحراوي مسعود
المركز الجامعي آفلو

الملخَّص :

يقوم هذا البحث على دراسة أحد المرجعيَّات العربيَّة وبيان أسبقيَّتها في الدَّرس التَّداولي ، وهو ما يأتي ضمن مساعي (إحياء الفكر التَّداولي عند العرب) ، ويتمثَّل ذلك في إبراز جهود " الجاحظ " التّداوليَّة ...

وأغلب البحوث – ممَّا يهدف إلى نفس الغاية – تنطلق من اعتبارٍ مؤدَّاه أنَّ جلَّ مبادئ التَّداوليَّة الحديثة حاضرٌ في تراثنا العربي – ولو بمصطلحات مغايرة – وما على الباحث إلاَّ استكشافها وبيان مظانِّها من كُتُب التُّراث ... وهو ما يجعلنا نقول بفكرة السَّبق العربي ل " الجاحظ " في المجال التَّداولي ، لما نلمحه في كتابه " البيان والتَّبيين " من اهتمام بجلّ مناحي الدَّرس التَّداولي الحديث ، بدءاً بتشكيل المعنى ، وكيفيَّة تبليغه ، ومعرفة السّياقات والطّبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها " الخطاب " ، ووُصُولاً إلى فهم المعنى ، وبيان الأثر النّاتج عن الرّسالة التّخاطُبيَّة ، وشروط نجاح هذه الرِّسالة أو فشلها ...

Abstract

This research is based on the study of Arabic references and a statement provided by the lesson in pragmatic , as part of (the revival of pragmatic Arabic thought) .The show that in the "al-jahiz" pragmatic efforts … and most of the research - which is aimed at the same goal - that runs from one concept is : The most modern principles of pragmatic present in the Arab heritage . All that should be explored is a researcher and a statement in their heritage books… which is why we say that " al-jahiz" above others in the pragmatic field , and that what we observe in his book " Al-Bayân wa l-tabyîn " of interest in studies of modern pragmatic , starting from the meaning , and how to deliver it , and know the different contexts in which accomplished "speech" , and to show the results of communicative message , and the conditions for the success or failure of this message .

01 – إشكاليَّة البحث :

أصبح من المسلَّم به عند دارسي التُّراث العربي في مقارباتهم له مع ما توصَّل إليه الدَّرس اللساني الحديث أنَّ البحث عن أُسُس التّفكير التَّداولي في هذا التُّراث لا يستوجب بالضَّرورة ابتكار أسئلةٍ جديدة ، بقدر ما يستدعي البحث عن منهج جديد في الدَّرس التَّداولي بإعادة الإجابة والبحث في " الأسئلة القديمة " ، من قبيل أسئلة : كيف يتشكَّل المعنى ؟ كيف نُبلِّغ المعنى ؟ وكيف نفهمه ؟ وهذه الأسئلة الثَّلاث – على كثرة تناولها – تبقى جديدةً كلّما درست ، وهي تُعدّ نواة الدِّراسات اللغويَّة – قديمها والحديث – وهو ما أغرى الكثير من الباحثين لإعادة قراءة التُّراث العربي والإفادة منه ، وصياغة أسئلة جديدة شكَّلت إجاباتها المِهاد النَّظري لجلّ الدِّراسات التَّداوليَّة ، من قبيلِ : كيف نتواصل مع الآخرين ونربِط علاقات معهم بواسطة القول ؟ وكيف يمكننا التّأثير عليهم به ؟ وكيف يُمكننا الإحاطة بنوايا المتكلّم وقصده من خلال ما يتلفّظ به ؟ وما هي الشُّروط التي تجعل تواصُلنا اللغوي ناجحاً ؟ وما الذي يُفشِلُه ؟ ...

وبحثنا – هنا – عن معالم التَّفكير التّداولي عند " الجاحظ " دون سواه ، وفي كتاب (البيان والتّبيين) دون غيره ينطلق من دافعين :

أوَّلهما : ما ذكره " محمّد العمري " في كتابه (البلاغة العربيّة) من أنّ : « التّداوليّة الحديثة بُعدٌ " جاحظي " في أصله ... » [1] . ممّا يجعل " الجاحظَ " من مؤسِّسي الفكر التَّداولي العربي ، ويُعزِّزُه كونه مؤسِّس البلاغة العربيَّة أيضاً .

وثانيهما : ما يُمثِّله كتاب (البيان والتّبيين) ، الذي يُشكّل – بلا ريب – رُبع تُراثنا العربي ، كما يقول "ابن خلدون" نقلاً عن شُيُوخه عند كلامه عن " علم الأدب " : « ... وَسَمِعْنَا مِنْ شُيوخنا في مجالس التّعليم أنّ أصول هذا الفنّ وأركانه أربعة دواوين : وهي أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب البيان والتّبيين للجاحظ ، وكتاب النّوادر لأبي علي القالي . وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروع عنها »[2] . وهذان الدّافعان ممّا يُبيِّن أسبقيَّة " الجاحظ " في الدَّرس التّداولي ، ويجعل كتاب (البيان والتَّبيين) كتاباً جديداً لم يُقرأ بعد ! . ممّا يدعونا لطرح إشكاليَّةٍ ترتكز على ما ذكرناه من إشكاليَّات الدَّرس التَّداولي وتسعى لبيانها بالإجابة على الإشكاليَّة الآتية : ما هي المبادئ التَّداوليَّة التي يتضمَّنها كتاب " البيان والتّبيين " للجاحظ ؟

والتي يتولَّى هذا البحث الإجابة عنها .

02 – أهمِّيَّة إعادة القراءة في التُّراث العربي :

أشار " طه عبد الرَّحمن " في دراسته لأصُول الحِوار إلى أنَّ بعض تُراثنا القديم لم يُبلِ جِدَّته تعاقُب الليالي والأيَّام ، وأنَّه يتضمَّن من الطَّاقات ما يجعله متجدِّد الفائدة ، إذ يقول : « قد يتضمّن القديم من الإمكانات ويفتح من الآفاق ما يجعل فائدته تمتدّ إلى بعيد الأزمان حتّى يبدو كأنّه شيء حديث في كلّ واحدٍ من هذه الأزمان البعيدة كما أنّ الحديث ، على العكس من ذلك ، قد تقلّ إمكاناته وتضيق آفاقه حتّى كأنّه أشبه بالماضي الميّت منه بالحاضر الحيّ »[3] . وهذا ما يدعونا إلى معرفة أهمِّيَّة المقاربات التّداوليَّة للتُّراث العربي ، وما يُمكن أن تُساهم به في بعث الدَّرس اللساني العربي ، ورصد خصائص اللغة العربيَّة ، وتفسير ظواهرها التّداوليَّة .

وإعادة قراءة تُراث أعلامنا العرب وفق المنهج التّداولي – كما يقول " مسعود صحراوي " – « سيُسهم في اكتشاف وتثمين جوانب من الجهود الجبَّارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاَّء »[4] . وذلك ما يسمح بإعادة عرض دراسات علمائنا بلغة معاصرة ، ثمَّ تمثيل نتائجهم في أبحاثهم في نظريَّات مبتكرة إذا توفَّرت الشُّروط الملائمة[5] .

وعلى ضوء هذه الأقوال يُمكننا أن نفهم معنى عبارة (إحياء التُّراث) وما يُمكن أن يفتحه من الآفاق ما يجعل فائدته متجدِّدة . خاصَّة مع وُجود ما يُؤكِّد معرفة العلماء العرب للمنهج التّداولي في دراستهم للغة ، وهذا ما يؤكِّده " محمَّد سويرتي " بقوله : « إنّ النّحاة والفلاسفة المسلمين ، والبلاغيّين والمفكّرين مارسوا المنهج التّداولي قبل أن يَذيع صيتُه بصفته فلسفة وعلماً ، رؤيةً واتّجاهاً أمريكيّاً وأوربيّاً ، فقد وُظّف المنهج التّداولي بوعي في تحليل الظّواهر والعلاقات المتنوّعة »[6] .

كما أثبتت العديد من الدِّراسات العربيَّة الحديثة أنَّ التَّداوليَّة ، كممارسة في تحليل الخطاب ، كانت حاضرة بقوَّة عند العرب القدامى ، أمثال الجاحظ والجرجاني وابن قتيبة والسكَّاكي ... وكان للجاحظ حظٌّ وافرٌ من هذه الدِّراسات التي تناولت بعض جوانب الدّرس التّداولي عنده ، ومن هذه الدِّراسات نذكُر :

– النَّظريَّة التَّداوليَّة فى تراث الجاحظ ، لحليمة موسى محمَّد الشّنمي : [2013 م] ، (رسالة ماجستير) ، القاهرة مصر .

– الحجاج في كتاب " البيان والتّبيين " للجاحظ ، لليلى جغام : [2012 م – 2013 م] ، إشراف : محمّد خان ، (أطروحة دكتوراه) ، جامعة محمَّد خيضر، بسكرة ، الجزائر .

وغير هذين الدِّراستين كثيرٌ ، ممَّا تناول جوانب معيَّنة من الدَّرس التّداولي وكانت مدوَّنته أحد الكتب التُّراثيَّة للجاحظ ، بتناول الأفعال الكلاميَّة ، أو الاستلزام الحواري ، أو القصديَّة ، أو مبادئ التَّعاوُن ، أو الحِجاج ... إلخ .

وقد حاولت جامعة (العقيد أكلي محنّد أولحاج) (البويرة) جمع ما تفرَّق من تلك الدِّراسات ضمن مشروعٍ واحد هو : (مشروع : المنظور التّداولي في مؤلّفات " الجاحظ ") .

ويَعتبِرُ " طه عبد الرّحمن " المنهجَ التّداوليَ – عموماً – أفضلَ مناهج دراسةِ التُّراث ، ويعتبره أهمَّ ما يُستند إليه في تقويم الدِّراسة التُّراثيَّة ، لما يتميَّز به من قواعد محدَّدة ، وشرائط مخصوصة وآليَّات صُوريَّة فيقول : « لا سبيل إلى تقويم الممارسة التُّراثيَّة ما لم يحصُل الاستناد إلى مجال تداولي متميِّز عن غيره في المجالات بأوصاف خاصَّة ومنضبط بقواعد محدَّدة يؤدِّي الإخلال بها إلى آفات تضرُّ بهذه الممارسة » [7] .

03 – إشكاليَّات الدِّراسات التّداوليَّة الحديثة للتُّراث العربي :

أصبحت الدّراسات اللغويَّة – عموماً – تعاني من " تَورُّمٍ " في التّنظير ، كما أنَّ الغرض من بعض الدِّراسات اللسانيَّة للتُّراث لا يتجاوز حُدود الرَّغبة في عصرنته ، والمبنيّ على دوافع نفسيَّة « هدفُها الاطمئنان على عصريَّة التُّراث الفكري وربطه بالتيَّار الفكري العالمي ، ولكن ما تتغافل عنه أنَّ غضّ النَّظر عن الاختلافات الزَّمنيَّة والفوارق الحضاريَّة والثَّقافيَّة وتجريد النِّتاج الفكري عن زمانه وعن الحضارة التي أنتجته هو تجريدٌ له من جزء من معناه ومغزاه ، وهذا ما يقُود إلى فهم جُزئي إن لم نقُل إنَّه يقود إلى إساءة فهم كُلِّيٍّ له » [8] . كما أنَّ بعض هذه الدِّراسات – للأسف الشَّديد – يكون دافعها متطلَّبات الحُصُول على شهادة أكاديميَّة تكون نتائجها معروفة سلفاً ! ممَّا يجعل نتائجها لا تخدُم التُّراث بالرَّغم ممَّا تَبذلُه من جهدٍ في نفضِ الغُبار عنه ، والإشكاليَّات الأخرى التي تقوم عائقاً أمام تجديد التُّراث ما تتطلَّبه إعادة القراءة من " استحداث مصطلحات جديدة " ، كبحثنا – هنا – عن (مصطلحات جاحظيَّة) في الدَّلالة على أفكاره التّداوليَّة ، ومَكمن الصّعوبة ما يتطلَّبه المصطلح الجديد من الخضوع لمبدأ الاستعمال والشّيوع الذي يُعدّ من أهمّ المبادئ المصطلحيَّة إن لم يكن أهمّها ، في حين أنَّ اقتراح مصطلحات تداوليَّة جديدة لن يخلُق إلاّ (فوضى مُصطلحيَّة) أمام مصطلحات تداوليَّة كثيرة شاعت واستقرَّت ! . وهو ما يُرجعنا إلى الإشكاليَّة الأولى (تورُّم التّنظير) ، على حساب المنفعة العلميَّة .

والإشكاليَّة الأخرى هي أنَّ ما قد يكون حلاًّ لما سبَق سيُكوّن إشكاليَّة أكبر ، وهي الوُقوع في شَرَك (الإسقاط) ، أي إسقاط الأفكار التّداوليَّة على ما جاء به " الجاحظ " لنقول – مثلاً – إنّ " الجاحظ " قد عرف التّداوليَّة أو إنّه سبق الغرب إليها منذُ قُرون !! ، وهذا يقودنا في الأخير إلى سُؤال لا مهرب منه وهو : ما الجديد الذي سنكون قد جئنا به عندئذٍ ؟ وما الذي كنّا سنقوله لو أنّ منهج البحث كان منهجاً آخر غير المنهج التّداولي ؟ ! . ولعلَّ هذا هو ما دفع " مسعود صحراوي " في دراسته ل " التّداوليّة عند العلماء العرب " إلى وُجُوب مراعاة المنهج خلال إعادة قراءة التّراث قراءةً تبتعد عن التّعسّف في تطبيق المفاهيم تطبيقاً قسرياً ، مع ضرورة استصحاب خصوصيّة هذا التّراث واستقلاليّته ممّا يجعل منه منظومة مستقلّة ومتميّزة ومتكاملة ... الأمرُ الذي دفعنا إلى تذييل عنوان بحثنا بعبارة (سبق التَّأصيل وضعف التَّفعيل) التي لا يكاد يخفى على الدَّارسين – الآن – شطرُها الأوَّل (سبق التَّأصيل) ، من أنَّ " الجاحظ " قد سبق عصره بأشياء كثيرة ، ولكن الكثير من هؤلاء أيضاً جسَّد الشَّطر الثَّاني من (ضعف التَّفعيل) ممَّا يدفع " بعضَ " من لا يُدركون جدوى مثل هذه الدِّراسات التَّداوليَّة إلى التَّساؤُل قائلين : ما جدوى ما تقومون به ؟ !

وإلى حين إيجاد حلول لهذه الإشكاليَّات التي تُعطي لبحوث (إعادة قراءة التُّراث) فاعليَّتها وجدواها لا نجد مناصاً من البحث عن بعض مبادئ الدَّرس التّداولي في كتاب " البيان والتّبيين " ل " الجاحظ " . ونعترف أنَّ هذا البحث لم يُخرجنا عن حُدود " الإسقاط " ، ولهذا مُبرِّراته ، إذ لا يُمكن صوغ نظريَّة متكاملة في علم جديد ضمن مقالٍ كهذا ، إضافةً إلى طبيعة كتاب " البيان والتّبيين " وأُسلوب صاحبه ، إذ يخلو الكتاب من مقدِّمة ، ويكثُر من صاحبه الاستطراد ، وتتناثر

مباحث التّداوليَّة في صفحات كتابه ... ممَّا جعله محلّا للنّقد ، والطّعن عليه بالتفكُّك والتِّكرار وتشويش القُرَّاء [9] ، في الوقت الذي يعتبر فيه " شارل بيلات " أنّ « على هذين (التَّفكُّك والتّكرار) تقوم روعة كتب الجاحظ » [10] . وهو لا يعدو أن يكون – عند بعضهم – مجرَّد مجموعة من المختارات الأدبيَّة الجيِّدة في الشِّعر والنَّثر [11] ، وقريبٌ من هذا الرَّأي ما يصفُه البعض بأنَّه « مختارات من الأدب ، من آية قرآنيَّة ، أو حديثٍ ، أو شعر ، أو حكمة ، أو خطبة ، ممزوج بما له من آراء في مسائل عدَّة ... » [12] بل إنَّ المنصِف منهم ، والمحقِّق له يصعُب عليه تصنيف موضوع الكتاب ، فهذا " عبد السَّلام هارون " – محقِّق الكتاب – يرى بأنَّه كتاب متعدِّد الأغراض والمواضيع ، ويجتهد المحقِّق في تصنيفه إلى عشرة مباحث ، بعد إخلاف " الجاحظ " لبيان ما وعد به ، ذلك بسبب أسلوبه (أسلوب الاستطراد) [13] .

ويُمكننا أن نعتبر " اللاتناسُق الموجود في كتب الجاحظ " من أبرز مظاهر " تداوليَّته " على ما نجده من حال استعمال النّاس للغة في حياتهم واستعمالهم لأفعالها الكلاميَّة ، فلا تجد النّاس يتحدَّثون في موضوع واحد حال استعمالهم للغة ، في مظاهر اتّصالهم الاجتماعي ، بل تجدهم يعمدون إلى " أسلوب الجاحظ " في الانتقال من موضوع إلى آخر بما يحقّق الغرض العام من التّواصُل ، فيكون ما يعيبه عليه غيره من عدم التّبويب والتشتُّت هو ما يُميّزه تداوليّاً ، ولعلَّ ذلك سرٌّ من أسرار خلوده ... وهو ما جعل " أبا هلال العسكري " في " الصّناعتين " يُنصفه ، ويذكر ما في كتابه من الفوائد الجمَّة مع بَذْلِ الجهد في جمع ما تناثر من تلك الفوائد بين صفحات كتابه بإدامة النَّظر فيه ودوام التصفُّح له فيقول : « ... وهو لعمري كثير الفوائد ، جمّ المنافع (...) إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ، مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتثرة في أثنائه ، فهي ضالّة بين الأمثلة ، لا توجد إلاّ بالتّأمّل الطّويل ، والتّصفّح الكثير » [14] .

04 – تداوليَّة الجاحظ :

تتَّضح غاية التّواصُل باللغة في (الفهم والإفهام) ، ومحتوى كتاب (البيان والتّبيين) يُبرز اهتمام " الجاحظ " بدراسة الاستعمالات المختلفة للمعنى من قبل الذّوات المتكلّمة ، ودراسة اللغة في تحقّقاتها المقاميّة المختلفة ... من منطلق أنَّ " لكلّ مقامٍ مقالاً " ، ومن منطلقٍ آخر توظَّف فيه كلّ ملكات المخاطِب لإيصال مقاصدِه إلى من يُخاطِبُه. وإذا أدركنا أنَّ التّداوليَّة في أبسط تعريفاتها ممّا تمَّ الإجماع عليه هي " علم الاستعمال اللغوي " [15] عرفنا أنَّ " الجاحظ " قد كان له فضل السَّبق في عرض أبرز معالم الدَّرس التَّداولي الحديث ، ولا يضيره جهله بأنَّه يضع أسُس أهمّ مناهج البحث اللغوي في العصر الحديث – رغم كونه من أعلام القرن الثَّالث الهجري (ت 255 ه) – إذا عرفنا أنَّ مؤسِّس التَّداوليَّة ذاته " جون أوستين " كان يجهل هو أيضاً أنَّه يضع اختصاصاً جديداً للسانيَّات أو فرعاً جديداً لها ، وإنّما كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو (فلسفة اللغة) بيد أنَّ ما ألقاه من محاضرات فيما بعد شكَّل بوتقةً للسانيَّات التَّداوليَّة . [16] . وهذا إذا سلَّمنا بأسبقيَّة " أوستين " في وضع معالم الدَّرس التَّداولي ! [17] . ويُعزِّز سعينا هذا للبحث التّداولي عند " الجاحظ " – إضافةً إلى ما سبق – اعتراف " أوستين " نفسه أنّ تقسيمه التّداولي غير مستفيض ويحتاج إلى إعادة نظر ... ليفتح بذلك المجال لتطوير البحث التّداولي ولا يقصره على ما جاء به .

كما لا يتمّ بلوغنا غايةَ هذا البحث إلاّ بالمقارنة ، واستقراء المنتوج التّداولي الحديث ، واستخراج تداوليَّة " الجاحظ "، بإعادة قراءة الفكر الجاحظي في ضوء التّصوّرات التّداوليّة . ويضع " الجاحظ " الأساس لتداوليَّته بشرح الغاية الأساسيَّة التي تتأسَّس عليها الرِّسالة اللغويَّة فيقول : « والبيان اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنى ، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير، حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته ، ويَهجُم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدّليل ؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائل والسّامع ، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام ؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن

المعنى ، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع » [18] . فتكون غاية التَّواصُل اللغوي " الفهم والإفهام " ، ويُبيِّن هذا القول عناصر العمليَّة الاتِّصاليَّة التي ترجع إلى : (القائل والسَّامع) ليظهر منها ما يدلُّ على استعمال (التلفُّظ) دون سواه من وسائل التّواصُل ، و(كلّ شيء كشف القناع) يُوسِّع مجال التلفُّظ ليشمل الإشارة ، والسِّياق ، والرّمز ، والكناية ، والتّعريض ... إلخ شرط أن يوضِّح المعنى المتضمَّن ، والغاية التي يجري إليها طرفا الخطاب (الفهم والإفهام) ، وواضح ما يتطلَّبُه كلُّ ذلك من وضع استراتيجيَّات تخاطُبيَّة ، وتأثير كلّ منهما في الآخر ... والمعلوم أنَّ الاستراتيجيَّة التَّخاطُبيَّة هي وسيلة تحقيق المقاصد ، وقد أدركت التَّداوليَّة أنَّه يستحيل فهم دلالات الخطاب الصَّريحة منها والضِّمنيَّة ، ما لم نفهم المقاصد التي وُجدت وراء إنتاجه .

04 – 01 – اللغةُ استعمال :

استعمال " الجاحظ " للفظ " الاستعمال " والتّركيز عليه كاعتبار أساسي في التّخاطُب ، بل كأساس للغة التي تتمثَّل غايتها في (الفهم والإفهام) أو ما جعله عنواناً لكتابه (البيان والتّبيين) ظاهرٌ في بدايات كتابه ، وذلك بوُجوب إيصال المعنى ، مع تقديم الفائدة ، ممَّا لا يتأتَّى إلاَّ باستعمال اللغة ، في إيصال أغراض المخاطَبين ، بما يُحقِّق نجاح التَّواصُل بينهم إذ يقول : « ... وإنّما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيّاها . وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتجلّيها للعقل (...) وتجعل المهمل مقيّداً ، والمقيّد مطلقاً (...) وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجح ... » [19] ومعالم التّداوليّة جليّةٌ في هذا النّص من خلال الحديث عن ضرورة استعمال المعاني ، بالإخبار عنها واستعمالها بما يضمن الفهم ويُوضِّحه للسَّامع ، حيث يركّز على ضرورة إفهام المخاطب ، وإبلاغه محتوى رسالته التَّخاطُبيَّة . وهذا جوهر التّداوليّة . كما يشترط " الجاحظ " أن يكون استعمال المعاني مفيداً ومحقّقاً لقصد المتكلّم أي فيه منفعة ... [20] .

ويُعدُّ " الجاحظ " في عُرفنا اللغوي من مؤسّسي البلاغة العربيّة ، والتي هي في صميمها مبحثٌ تداولي ، وهذا ما يراه " ليش" حين يقول : « البلاغة تداوليّة في صميمها ، إذ إنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسّامع ، بحيث يحلاّن إشكاليّة علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتّأثير على بعضها » [21] . ويرى " صلاح فضل " أيضاً أنّ مفهوم التّداوليّة يأتي « ليغطّي بطريقة منهجيّة منظّمة المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة " مقتضى الحال " ، وهي التي أنتجت المقولة الشّهيرة في البلاغة العربيّة " لكلّ مقام مقال " » [22] . ويوسِّع هذا الأُفق قول " أحمد المتوكّل " الذي يَعتبر التّداوليَّة نواةَ مختلفِ العلومِ اللغويَّة ، وليست خاصَّةً بالدَّرس البلاغي وحده فيقول : « النَّظريَّة الثَّاوية خلف مختلف العلوم اللغويَّة (النَّحو ، اللغة ، البلاغة ، فقه اللغة ...) نظريَّة تداوليَّة » [23] . وهو ما يجعلنا نتلمَّس التّداوليَّة في كلّ ما يكتُبه الجاحظ عن اللغة أو التّخاطُب أو المعنى ... وممّا جاء في كتاب " البيان والتّبيين " من عبارات بلاغيّة ، تُشكّل في صميمها لمسات تداوليّة قوله :

01 – « إنّما النّاس أحاديث فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل » [24] .

02 – « حدِّث النّاس ما حدجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم ، فإن رأيت منهم فترة فأمسك » [25] .

03 – « نشاط القائل على قدر فهم السّامع » [26] .

04 – « سوء الاستماع نفاق » [27] .

05 – « ما قرأتُ كتاب رجل قطّ إلاّ عرفت فيه عقله » [28] .

06 – « كن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول » [29] .

وهذه الأقوال على إيجازها تتضمَّن ملامح ما يقوم عليه التيّار التّداولي ، باعتباره مذهباً لسانيّاً يدرس :

01 – علاقة النّشاط اللغوي بمستعمليه .

02 – طُرُق وكيفيّات استخدام العلامات اللغويّة بنجاح .

03 – السّياقات والطّبقات المقاميّة المختلفة التي يُنجز ضمنها " الخطاب " .

04 – البحث عن العوامل التي تجعل من " الخطاب " رسالة تواصليّة " واضحة " و " ناجحة " .

05 – البحث في أسباب الفشل في التّواصل باللغات الطّبيعيّة ... إلخ .

06 – مفهوم " الأفعال الكلاميّة " ويُشكّل جزءاً أساسياً من بنية النّظريّة التّداوليّة ، وقد أضحى نواة مركزيّة لكثير من البحوث التّداوليّة [30] .

04 – 02 – تداوليَّة الجاحظ بين وضع اللغة واستعمالها :

من المعلوم أنَّ الكلام غير مؤهَّل للاحتواء على فائدة إلاَّ وقد استوفى شرط المواضعة عليه ، وتغليبُ الاستعمال على الوضع راجعٌ لأنَّ اللغة بنت الاستعمال ، والاستعمال سابق على " المَعْيَرَة " [أي وضع المعايير والقواعد] . ولهذا نجد المتخاطبين ينطلقون من مجموعة من التَّواضُعات والاشتراكات الدَّلاليَّة تُعرف في التّداوليَّة ب (العقد اللغوي) ، وهو الحدُّ المشترك بينهما من قوانين (الوضع اللغوي) بحيث يتمّ الانطلاق من مدلولات الألفاظ أي قوانين اللغة ، قبل الانتقال إلى " قواعد التَّأويل " إذ يتمّ الاشتغال عندئذ في أفق أبعد من تعيين الملفوظات لمسمَّياتها ، ويكون ذلك عند عجز اللغة عن إحداث التَّفاهُم بين طرفي الخِطاب ، فيعمد المتخاطبون إلى ربط دلالات الألفاظ بسياقاتها ، والبحث عن مضمراتها ، والاستعانة بالافتراضات المسبقة ، مع ضرورة مطابقة الكلام لملابساته ، حيث تُشكِّل هذه الملابسات أهمّ عناصر نجاح العمليَّة التَّواصُليَّة أو فشلها ، ومن طرائف ما ينقُله لنا " الجاحظ " فيما نقله من كلام " بشر بن المعتمر " في صحيفته ، وهو يتحدث عن النَّوْكى ، حيث أدَّى بأحد هؤلاء الحمقى إلى إفشال (العمليَّة التَّواصُليَّة) لأنَّه لم يُوائم بين سياق الموقف ، والخطاب المتلفَّظ به ، فمع جلالة اللفظ وأهمِّيَّته ، إلاَّ أنَّ غياب مطابقته للمقام أدَّى إلى السُّخريَّة منه ، وبالتَّالي لم يُؤدِّ (الفعلُ الكلامي) دورَه التّداولي المنوط به من إحداث التَّأثير المرجو ، ويتمثَّل ذلك في قوله : « قال أبو الحسن : خطب مصعب بن حيان أخو مقاتل بن حيان خطبة نكاح ، فحصر فقال : لقِّنوا موتاكم قول لا إله إلاَّ الله ، فقالت أم الجارية عجَّل الله موتك ألهذا دعوناك !؟ » [31] .

ونرى من اهتمام الجاحظ بالاستعمال اللغوي – ولو على حساب (الوضع) أو (التّركيب النّحوي) – ما يقوله عن وُجوب الأخذ من النَّحو بقدر ما يُحقِّق أساس التَّواصُل فقط ، وأنَّ بعض السِّياقات تقتضي نقل الحديث حتَّى مع وُجود (اللحن) أي – فساد الوضع – لأنَّ إبقاء اللحن هو ما يعمل على إنجاح العمليَّة التّواصُليّة وإحداث الفعل الكلامي لأثره في المتلقِّي ، وهو ما يُوضِّحُه بقوله : « مرَّ رجل من قريش بفتى من ولد عتَّاب بن أَسِيد وهو يقرأ كتاب سيبويه، فقال: أفٍّ لكم، علم المؤدِّبين وهمّة المحتاجين وقال ابن عتَّاب : يكون الرجل نحويّاً عَروضياً ، وقسّاماً فَرَضياً ، وحسنَ الكتاب جيّد الحساب ، حافظاً للقرآن ، راوية للشِّعر ، وهو يرضى أن يعلِّم أولادنا بستِّين درهماً ، ولو أنَّ رجلاً كان حسنَ البيان حسنَ التَّخريج للمعاني ليس عنده غيرُ ذلك لم يَرْضَ بألف درهم ؛ لأن النَّحويَّ الذي ليس عنده إمتاعٌ ، كالنجّار الذي يُدْعَى ليغلّق باباً وهو أحذَقُ الناس ، ثمّ يفرغ من تعليقه ذلك البابَ فيقال له : انصرفْ ، وصاحبُ الإمتاع يُراد في الحالات كلِّها » [32] . فهو يُريد أنَّ حاجة المرء لاستعمال اللغة في الإمتاع والتَّداوُل أكثر من حاجته للنَّحو – رغم أهمِّيَّته – بل خصَّ بعد ذلك باباً لمن يلحن من البلغاء (باب ومن اللحّانين البُلغاء) ليُؤكِّد على أهمِّيَّة القول في نهاية الأمر

، ولا يضير المرء لحنُ القول متى ما أعربَ فِعلُه ولعلَّ هذا ما يُبيِّنُه قول بعض النّسَّاك : ؤ أَعْربنا في كلامنا فما نلحن، ولحَنَّا في أعمالنا فما نُعربِ » [33] .

وما ذكره " الجاحظ " يتبيَّن معه تركيزه على جانب " استعمال اللغة " وتداولها ، ممَّا يُرجِّح كفَّة الاستعمال على الوضع ، لأنَّ الغاية الأساسيَّة هي التّبليغ والاتّصال ، أو ما وضعه مبدأ لكتابه وهو (الفهم والإفهام) و (البيان والتّبيين) ، « فبأيِّ شيءٍ بلغْتَ الإفهامَ وأوضَحْتَ عن المعنى ، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع » [34] . ويقول " مازن الوعر " موضّحاً : " فاللّغة ، هي من أهمّ الفعاليَّات في عمليَّة الاتّصال التي بها يمكن أن نبلّغ بعضنا بعضاً وبها يمكن للمجتمع أن يسير على قدميه وعلى الرّغم من أنّ هناك اختلافاً بين مفهوم التّبليغ أو الاتّصال وبين مفهوم اللّغة تبقى حقيقةً مهمّةً وهي أنّ الهدف الرّئيسي من عملية اللّغة هو الاتّصال والتّبليغ ".[35] . وذلك – كما أسلفنا – حتَّى لو كان على حساب النّحو ، وهو ما يُؤكِّد في نقل نوادر الأعراب ، ومُلح العوام ، فيقول في ذلك : « إذا سمعت بنادرةٍ من نوادر العوامّ ومُلْحَة من مُلح الحشوة والطّغام فإيّاك أن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخيّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرّياً فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ويذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها » [36]« فإذا كان من الواجب على المتكلّم أن يراعي حقّ المتلقّي وحقّ الموضوع أيضاً... فإنّ عليه أن يراعي حقّ الخطاب ذاته ، في حدود المستوى الذي أخذ فيه المتحدّث ، فإذا بدأ المتحدّث كلامه معرباً فصيحاً فعليه أن يحافظ على إعرابه وفصاحته فلا يلحن فيه ، أمّا إذا بدأه ملحوناً من كلام المولّدين فلا يجب أن يعود فيه إلى الإعراب ... » .[37] ويرى الباحثان " طلال وهبه وحسن الأبيض " أنّه " يظهر من كلام " الجاحظ " أنّ المتكلّم عالم بمرجعيَّتين لغويَّتين ... مرجعيَّة (الكلام الفصيح) ومرجعيَّة كلام (العوامّ) . ولكنّه مدعوٌّ إلى استعمال مرجعيةٍ واحدةٍ في تواصله مع السّامع ، ومحكوم عليه بعدم البلاغة إن لم يفعل ذلك ...[38] .

ويظهر ممَّا سبق أنّ الجاحظ يُعطي أهمِّيَّةً كُبرى للاستعمال ويُركّز كثيراً على أن ينحو المتكلّم منحى السّامع ، وهو – وإن لم يُهمل سُلطة الوضع – بنقل الكلامِ المعربا معرباً ، وعدم جواز التَّصرُّف فيه ، فإنَّه يُرجِّح كفَّة الاستعمال التي يكون له القولُ الفصل في إنجاح الخِطاب أو إفشاله ، على ما يجب أن يكون بين المتخاطبين من (عقد التّواصُل) واحترام هذا العقد بين المتكلِّم والمخاطَب ، هو ما يسمِّيه التَّداوليُّون ب (مبدأ التَّعاون) . وأشار " الجاحظ " إلى الموجبات الاجتماعيَّة التي تحكم عقود التَّخاطُب في مواقع عِدَّة من كتابه ، نكتفي منها هنا بإيراد ما يكون من (مبدأ التَّعاوُن) في (الحديث مع الضَّيف) .

ولأنّ العربَ تجعلُ الحديثَ والبَسط ، والتأنيس والتَلَقِّيَ بالبشر ، من حقوق القِرَى ومن تمام الإكرام به ، وهي ما يُشكِّل السِّياق التّداولي لبدأ علاقة التّخاطُب مع المخاطَب (الضَّيف) ، والتي تبدأ باستعمال عُنصُر تداولي مهمّ هو ما يُعرف ب (الإشاريَّات) و(الخطاب غير اللغوي) فتجعل العرب « مِن تمام الضِّيافةِ الطَّلاقةُ عند أوّلِ وَهْلة ، وإطالةُ الحديث عند المواكلة ، وقال شاعرهُم – وهو حاتم الطائيّ :

سَلِي الجائعَ الغَرْثَانَ يا أمّ مُنْذِرٍ = إذا ما أتاني بين ناري ومَجْزَرِي

هَلَ أبسُطُ وجهي أنّه أوّلُ القِرَى = وأبذلُ معروفي له دون مُنكَرِي » [39] . وفي هذا بيان للعناصر غير اللغويَّة التي تؤسِّس ل (مبدأ التّعاوُن) وتُمهِّد لإنجاح العمليَّة التَّواصُليَّة ، فيتمّ الفعل اللغوي (التّرحيب بالضَّيف) قبل الحديث معه ، وذلك ببسط الوجه وبذل المعروف ، وهي العناصر غير اللغويَّة المكوِّنة لعُمدة الخطاب التّداولي .

وهو ما نجدُه في قول الآخر :

« إنّك يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتَى = وخيرهُمْ لطارقٍ إذا أتى
ورُبَّ نِضوٍ طَرَقَ الحيَّ سُرَى = صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى
إنّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى

وقال الآخر : لحافي لحافُ الضَّيفِ والبيتُ بيتُه = و لم يُلهِني عنه غزالٌ مقنَّعُ
أُحَدِّثُه إنّ الحديثَ من القِرى = وتعلمُ نفسي أنّه سوف يهجعُ

ولذلك قال عمرو بن الأهتم : فقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً = فهذا مَبيتٌ صالحٌ وصديقُ

وقال آخر : أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزال رَحْلِه = ويُخصب عندي والمحلُّ جَديبُ

وما الخِصْب للأضياف أن يكثُر القِرَى = ولكنّما وجهُ الكريمِ خصيبُ » [40] .

وفي استشهاد " الجاحظ " بأقوال الشُّعراء بيانٌ آخر لاهتمامه بأحد أهمّ عناصر الدَّرس التّداولي وهو (الحِجاج) إذ تُعتبر تلك الأبيات في مقام عرض الحُجج التي يُريد بها تعزيز رأيه ، وبيان موقفه في أيّ سياق تواصُلي . ويدخُل في آداب الحِجاج ومبدأ التّعاوُن قوله : « وليس ، حَفِظك اللّه ، مضرَّةُ سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسَقَطات الخطل يوم إطالة الخُطبة ، بأعظمَ مما يحدُث عن العيّ من اختلال الحجّة ، وعن الحَصَر مِنْ فوت دَرَك الحاجة » [41] . وبهذا يُبيِّن دور الحِجاج في تحقيق الخِطاب لأغراضه ، ويُرتِّبُ حُججه وفق ما يُعرفُ ب (السُّلم الحِجاجي) بزيادة القوَّة في حجَّته الأولى القائمة على « أنَّ افتقادَه النّاس لا يعيِّرون الخُرس ، ولا يلومون مَن استولى على بيانه العجز ، وهم يذمُّون الحَصِرَ ، ويؤنِّبون العييّ ، فإن تكلّفا مع ذلك مقاماتِ الخطباء ، وتعاطَيَا مناظرة البلغاء ، تضاعف عليهما الذمّ وترادَفَ عليهما التَّأنيب ، ومماتنةُ العَيِّ الحصِرِ للبليغِ المِصقَع ، في سبيل مماتَنَة المنقطع المفحَم للشَّاعر المفلق ؛ وأحدُهما ألْومُ من صاحبه ، والألسنةُ إليه أسرع » [42] . ليُبيِّن بعد ذلك تفاوُت مراتب النَّاس في ذلك بقوله : « وليس اللَّجلاج والتّمتام ، والألثغ والفأفاء ، وذو الحُبسَة والحُكلة والرُّتَّةِ وذو اللَّفَفِ والعجلة ، في سبيل الحَصِرِ في خطبته ، والعييّ في مناضلة خصومه ، كما أن سبيلَ المُفْحَم عند الشُّعراء ، والبكئ عند الخطباء ، خلافُ سبيل المسْهَب الثَّرثار ، والخَطِل المِكْثار » [43] .

وتعدّ نظرية الحجاج في اللغة هي نظريَّة لسانيَّة تهتمّ بالوسائل اللغويَّة وبإمكانات اللغات الطَّبيعيَّة التي يتوفَّر عليها المتكلِّم ، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما ، تمكِّنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجيَّة ، ثمَّ إنَّها تنطلق من الفكرة الشَّائعة التي مؤدَّاها " إنَّنا نتكلَّم – عامَّةً – بقصد التَّأثير" . غير أنَّ من يتتبَّع كتاب (البيان والتّبيين) يجد بعض موجِّهات الخِطاب التّداولي واضحةً فيه ، وهي المشكِّلة لرُتب الفِعل الحِجاجي عند الجاحظ ، فيُرتِّب حُججه بحسب ما يملكُه من سُلطة للنَّصّ وفق التَّرتيب الآتي غالباً ، كالذي نجدُه في حِجاجه لاستعمال العرب (العصا) عند الخطاب ، محاولةً منه للردّ على الشُّعوبيَّة في ذلك ، والذي يجعل كتاب " الجاحظ " عند البعض مؤلَّفاً أساساً للردّ عليهم .

ويُمكن إجمال موجِّهات الخطاب التّداولي الحِجاجي عند " الجاحظ " وفق قوَّته الحجاجيَّة كالآتي : الخطاب القرآني ، الخطاب النّبوي ، الخِطاب الشِّعري ، الخطاب النّثري (أقول الخُطباء ، والفلاسفة ، والمتكلِّمين ...) . وهو ما يُمكن أن نعتبره مكوِّناً لاستراتيجيَّة تخاطُبيَّة تعتمد التَّرتيب السَّابق في إيراد الحُجج ، عندما يكون الخطاب ذا طبيعة جدليَّة حجاجيَّة ... والتي يربطُها غالباً ضِمن قالب قصصي (سردي) يسوق فيها حججه ، لتُشكِّل بنقلها (أقوالاً مُضمرة) يُوصل من خلاله مراده إلى مُتلقِّيه . ويتوخَّى من خلالها حمل متلقِّيه على إنجاز الفعل الواقع خارج النَّصّ ، ويريد من قارئه أن يشاركه الحكم معه عليها . وهذا ما دفع " محمد مشبال " إلى وضع كتاب بحياله لرصد تلك العلاقة القائمة بين (البلاغة والسَّرد) عند الجاحظ في كتابه : (البلاغة والسّرد ، جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ) ، وجعل ذلك "

مدخلاً جديداً لقراءة نثر " الجاحظ " ، لما يرى فيه من ربط أدب " الجاحظ " بالحياة « فالبليغ عنده ليس المتكلِّم الذي استجاب في إنجاز كلامه لمقاييس الرُّؤية البلاغيَّة فقط ولكنَّه الإنسان الذي امتثل في سلوكه وتصرُّفاته وتفكيره لجوهر هذه الرُّؤية » [44] .

ويؤكِّد " مشبال " على وجوب الوعي بتداخل وتمازج الوظيفتين الحجاجية والتَّخييليَّة فيها ، عند من يتولَّى التَّحليل البلاغي لأخبار " الجاحظ " ، ففي نصوصه من " الأدبية " ما يجعل القارئ يتفاعل معها بمفهومات التَّخييل والتَّصوير إلى جانب التَّداول والحجاج . وهو ما أكَّد " محمّد مشبال " بقوله : " نستطيع أن نخلص في نهاية هذا التَّحليل إلى أنَّ بلاغة الجاحظ قامت على مكوِّنين أساسيَّن هما : الحجاج والتَّصوير. فالجاحظ بياني قويُّ الحجَّة قادر على الإقناع والإفحام والتَّأثير ، وهو أيضاً مصوِّرٌ قادرٌ على الوصف الدَّقيق والقصِّ الممتع ، تدلُّ على ذلك نوادره وأخباره في البخلاء وكتاب الحيوان والبيان والتَّبيين ، فلا عجب أن تجتمع في الرَّجل هاتان الصِّفتان اللتان شكلتا عمود البلاغة الإنسانيَّة [45] . وهو ما يدفع القارئ لتبنِّي ما جاء به " الجاحظ " وما ساقه من أقوال ، تتضافر فيه أساليب الإقناع ومقوِّمات الإمتاع لحمل المتلقِّي على فعل ما أو النُّفور منه .

و" الجاحظ " لا يتردَّد في إلحاق العقاب بشخصيَّاته المتردّية والسُّخرية منها داعياً المتلقِّي إلى مشاركته وجهة نظره بناء على جملة من المسلَّمات والقيم التي قامت عليها نصوصه السَّرديَّة الحجاجيَّة " [46] . وهو ما يُجلِّي مقاصد الأخبار " في المدوَّنة الجاحظيَّة [47] ، باعتبار " البيان والتّبيين " خطاباً بلاغيّاً تواصليّاً يتوخَّى توصيل جملة من المقاصد من قبيل :

01 – بناء الأخلاق في المجتمع .

02 – المعرفة العقليَّة سبيل الإيمان .

03 – التَّمييز بين الإنسان والحيوان .

04 – تثقيف القارئ .

05 – متعة الهزل المقترنة بالفائدة .

04 – 03 – الأفعال اللغويَّة عند الجاحظ :

بيّن الجاحظ (استعمال اللغة) بواسطة اللسان والحالات المتعدّدة له ، والآثار النّاتجة عن هذا الاستعمال ، وُبيّن هذا الأثر ب (الفعل اللغوي) ، مثل : يُخبر ، يُنبئ ، يفصل ، يردّ ، تدرك ، تعرف ... إلخ ، وهذه الأفعال اللغويَّة تتجسَّد في شخص المخاطِب بامتلاكه لأداة التَّواصُل (اللسان) الذي بيَّن فيه الجاحظ القُدرات الإنجازيَّة التي يُمكن أن يتوفَّر عليها أداة " اللسان " ، وجعلها في صيغة (الفاعل) مبيِّناً من خلالها وظيفته الأساسيَّة في (البيان) متبنِّياً بعض أقوال البلاغيِّين فيقول : « بعضُ البلغاء وَصَفَ اللّسان فقال : اللسانُ أداةٌ يظهر بها حُسن البيان ، وظاهرٌ يُخبِر عن ضميرٍ ، وشاهدٌ ينبئُك عن غائب ، وحاكم يُفصَل به الخطاب ، وناطقٌ يُرَدُّ به الجواب ، وشافعٌ تُدرَك به الحاجة ، وواصفٌ تُعرف به الحقائق ، ومُعَزٍّ يُنْفَى به الحزن ، ومُؤنس تذهَب به الوَحْشة ، وواعظٌ يَنهَى عن القبيح ، ومزَيِّنٌ يدعو إلى الحَسَن ، وزارعٌ يحرث المودَّة ، وحاصدٌ يستأصل الضَّغينة ، ومُلْهٍ يُونِقُ الأسماع » [48] . ولاحظ أنّ هذه الأفعال تكاد تشمل مختلف مناحي الحياة ، واستعمال اللغة فيها . وهذا هو الوصف الذي نجدُه عند ناشرِ كتاب (التَّداوليَّة من أوستين إلى غوفمان ، لفيليب بلانشيه : [2007 م]) بقوله : « ونتبيّن من خلال مفهوم التَّواصل أنّ موضوع التداولية هو الإنسان نفسه وهو يباشر أدواره الاجتماعية » [49] . وهو الوصف الذي يليقُ به كتاب (البيان والتَّبيين) للجاحظ . والملاحظ على عبارة الجاحظ السَّابقة أنَّ كلّ فعل جاء بصيغة (اسم الفاعل) ، مثل : (ظاهر ، شاهد ، غائب ، ناطق ، شافع ،

واصف ، معزٍّ ، مؤنس ... إلخ) . والتي تُبيّن جميع (حالات المتكلّم) في سياقاته (التّخاطبيّة) أو (الدّلاليّة) المختلفة ... وهو ما يتّضح فيه عناصر (البحث التّداولي) من متكلّم ، وسياق ، و(لغة) ، و(مقامات تخاطبيّة) و(أثر لغوي) ... ممّا تُشكّل بمجموعها أيضاً عناصر (الفعل اللغوي) ، أو ما يُعرف في الدّرس التّداولي ب (الأفعال الكلاميّة) التي جاء بها (أوستين) ... وهكذا يقلّب " الجاحظ " مفهوم اللّسان على وجوهٍ مختلفةٍ ليصل في الأخير إلى مفهوم عام شاملٍ ، فهو يبدأ من المفهوم العامّ المرتبط بالبيان وحسنه ، ليتدرّج بعد ذلك إلى الخاصّ ، حين يتمثّل الإجراءات والأدوات التي تحقّق حسن البيان . ويُبيِّن القول السَّابق تفاعل تلك الأفعال مع السِّياقات المناسبة لها بين سياق اجتماعي ، أو نفسي أو تاريخي ... إلخ .

04 – 04 – مراعاة المتكلِّم لحال المخاطَب :

تبنَّى " الجاحظ " ما نقله " أبو الأشعث عن الهنود " ، جاعلاً من شروط التَّواصل النَّاجح أن يراعي المتكلِّم مخاطبه ، « فلا : يكلِّم سيِّد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السُّوقة »[50] ، مقتبساً من كلام " بشر بن المعتمر " إذ يقول : « ينبغي للمتكلِّم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار السَّامعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلاماً ولكلّ حالة من ذلك مقاماً » .. [51] ، وعلى هذا لا يُمكن للمتكلِّم أن يختار ألفاظه ، ثم ينظمها على ما يقتضيه مقصده ومبتغاه ، ثمَّ لا يقيم مع ذلك وزنا للسَّامع ، من حيث قدرته على الفهم ، أو مخالطته لفنون القول وأضرب الكلام ، وهذا قد يكون من معايب المنشئ ، إذ لا بدَّ أن ينتقي المتكلّم من ألفاظ اللغة ما يكون سهلاً معتاداً ، غير حوشي ، ولا معقَّد التَّأليف ...

04 – 05 – الجانب غير اللغوي في التَّخاطب :

وأمَّا عن الجانب غير اللغوي في التَّخاطب ، فنجد " الجاحظ " قد تنبَّه إلى مختلف الوسائط التَّعبيريَّة في أداء دور الإفهام ، والتَّعبير عن المعنى المراد إيصاله ، وقد أرجع بيان الدَّلالة إلى خمسة أنماط ، والإشارة في رأيه تكون « باليد ، وبالرَّأس ، وبالعين والحاجب والمَنْكِب ، إذا تباعَدَ الشَّخصان ، وبالثَّوب وبالسَّيف ، وقد يتهدَّد رافعُ السَّيف والسَّوط ، فيكون ذلك زاجراً ، ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً ، والإشارة واللّفظ شريكان ، ونِعْم العونُ هي له ، ونعم التُّرجمانُ هي عنه ، وما أكثرَ ما تنوب عن اللّفُظِ ، وما تُغني عن الخطِّ » [52] . وتعدُّ الإشارة من أدوات البيان التي يستعين بها المتكلِّم لزيادة الدَّلالة على معنى قد يقصر عنه الكلام « وما أكثرَ ما تنوب عن اللّفُظِ ، وما تُغني عن الخطِّ ، وبعدُ فهل تَعدو الإشارةُ أن تكون ذاتَ صورةٍ معروفةٍ ، وحِلْية موصوفة ، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها ، وفي الإشارة بالطَّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح ، مرفقٌ كبير ومَعُونة حاضرة ، في أُمورٍ يستُرها بعضُ النَّاسِ من بعض ، ويخفونها من الجليس وغيرِ الجليس ، ولولا الإشارةُ لم يَتفاهم النَّاسُ معنَى خاصّ الخاصّ ، ولَجَهِلوا هذا الباب البتّة »[53] .

– النَّصبة و(الرّمز) : أمَّا النَّوع الثَّاني من أنواع ما قد يؤدِّي دور الكلام في الدَّلالة على المقصود ، وإيضاح المستور في النَّفس ، وله اعتبار في النَّظر إلى الخطاب على أنَّه شبكة موسَّعة من الدَّلائل ، فما أسماه الجاحظ النَّصبة [54] ، وهي الحال المفصحة عن نفسها من غير واسطة اللفظ ، والتي تشير إلى ذاتها بلا يد ، وهذا المفهوم مقاربٌ لمفهوم الرّمز في السيميولوجيا الغربيَّة ، وهو الموصل إلى كلِّ ما له قابليَّة لأن يعرفه الإنسان ، ويدركه العقل البشري ، على أن يكون الطَّرَف الأوَّل في الرَّمز (الدَّال) قائماً في عالم الأعيان ، والطَّرَف الثَّاني (المدلول) من جملة عالم المجردات . وقد تمَّ الاتّفاق على تعريف الخطاب في مقدِّمة كتاب " التَّداوليّات وتحليل الخطاب " بأنّه : "حدث تواصلي حقيقي أداته اللغة ، أو هو بصورة أكثر عموميَّة : أيّ سلوك علامي يحمل معنى " . وهو بهذا لا يقتصر الخطاب على السُّلوك اللفظي فقط ،

بل يضيف إليه السُّلوك غير اللفظي ، واستخدام الإشارات والسِّمات شبه اللغويَّة والحركات الجسديَّة وغيرها من العلامات الدَّالَّة ذات المعنى . وهو ما يجعل " الجاحظ " واعياً بحدُود ما يُمكن أن تطاله اللغة خارج نطاق اللفظ ، إذ إنَّه لا ينظر للغة على أنها نسق مغلق من القواعد والبنى ، بل تجعل الخطاب ممارسة عمليَّة لنظريَّة البشر عن اللغة ، ووفق قُدراتهم على التَّرميز وفكّ شِفرته .

عُيوب التَّخاطُب : إنَّ ممَّا تتولّاه التّداوليَّة بالبحث والدَّرس كلّ ما يعترض الخِطاب من عُيوب يُمكن أن تغيِّر مجرى العمليَّة التّخاطُبيَّة ، ممَّا تتقاطع فيه مع تخصُّصات أخرى كعلم النَّفس اللغوي ، وعلم الاجتماع ، وحتَّى (الطبّ) وبعض فُروعها ك (الفيسيولوجيا) ، و (علم الأعضاء) مثلاً . والذي يستعين فيه " الجاحظُ " بأهل الخبرة والتّجربة في نقل ما يمسُّ العمليَّة التَّخاطُبيَّة ، بنقله لبعض عُيوب الكلام وما يعتري آلة الإيصال فيه وهو الجهاز النُّطقي بأعضائه المختلفة ، من لسان ، وشفتين ... أو عُيوب اجتماعيَّة وسُبل علاجها ، ممَّا يتفوَّق فيه على الدَّرس التّداولي بالسَّبق في التّناوُل والدقَّة في الملاحظة والتّعليل ... ونذكر هنا بعضها ممَّا يُمكن أن نختم به هذا البحث ، وهو اللثغة .

– اللثغة : إنَّ في نقلنا لقول " الجاحظ " ما يُغني عن بيان اللثغة وأنواعها ، وما له علاقةٌ بعلم الاستعمال اللغوي إذ يقول : « وربَّما اجتمعت في الواحد لُثغْتان في حرفين ، كنحو لثغة شَوْشَى ، صاحب عبد اللَّه خالد الأموي ؛ فإنَّه كان يجعل اللامَ ياءً والرَّاء ياء ، قال مرّةً : مَويايَ وييُّ اَيّيّ ، يريد : مولاي وليّ الرَّيّ ، واللُّثغة التي في الرَّاء إذا كانت بالياء فهي أحقرهنَّ وأوضَعُهنَّ لذي المروءة ، ثمَّ التي على الظَّاء ، ثم التي على الذَّال ، فأمَّا التي على الغين فهي أيسرهنَّ ، ويقال إنّ صاحبَها لو جَهَدَ نفسَه جَهْدَه ، وأحَدّ لسانَه ، وتكلّف مَخرج الرَّاء على حقِّها والإفصاح بها ، لم يكُ بعيداً من أن تُجيبه الطَّبيعة ، ويؤثِّر فيها ذلك التَّعهُّد أثراً حسناً ، وقد كانت لُثغة محمَّد بن شبيبٍ المتكلّمُ ، بالغَين ، وكان إذا شاء أن يقول : عَمْرو، ولعمري ، وما أشبه ذلك على الصحَّة قاله ، ولكنَّه كان يستثقل التَّكلُّف والتَّهيُّؤَ لذلك » [55] . وممَّا يحسُن أن نختم به ، تقبُّل " الجاحظ " لكلّ ما يأتي من النَّقد لكتابه ، وأنَّه على استعداد – لو كان في إمكانه ذلك – تصحيح بعض ما جاء فيه ، وأنَّ ما جاء به – يُعدُّ كغيره من الكُتُب – محلّا للمراجعة وإعادة القراءة وحذف والزِّيادة ولا يسلم من النَّقص إلاّ كتاب الله . فممَّا جاء عنه ما أخبر به يحيى بن عليّ قائلاً : « حدَّثني أبي قال : قُلتُ للجاحِظ : إنِّي قرأتُ في فصلٍ من كتابك المسمَّى كتاب " البيان والتّبيين " : إنَّ ممَّا يُستحسن من النِّساء اللحنُ في الكلام ، واستشهدت ببيتي مالك بن أسماء يعني قوله :

وحديثٌ ألذّه هو ممَّا = ينعتُ النَّاعتونَ يُوزَنُ وزنا

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا = ناً وخيرُ الحديث ما كان لحنا

قال : هو كذلك ، قلتُ : أفما سمعتَ بخبرِ هندٍ بنت أسماء بن خارجة مع الحجَّاج حين لحنت في كلامها فعاب ذلك عليها ، فاحتجَّت ببيتي أخيها ؟ فقال لها : إنَّ أخاكِ أراد أنَّ المرأة فطِنة ، فهي تلحنُ بالكلام إلى غير المعنى في الظَّاهر لتستُر معناه ، وتروي عنه وتفهمه من أرادَت بالتَّعريض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمَّد (صلَّى الله عليه وسلَّم) : 30] . و لم يُرد الخَطَأ من الكلام ، والخطأ لا يُستحسَن من أحد ، فوجم الجاحِظ ساعةً ، ثمَّ قال : لو سقَطَ إليَّ هذا الخبَر لما قُلتُ ما تقدَّم . فقلتُ له : فأصلِحهُ ، فقال : الآن وقد سار الكتاب في الآفاق ؟ هذا لا يصلُح » [56] .

خلاصة البحث :

يشكِّل الدّرس التّداولي خطوةً متقدّمة في مسيرة الدّرس اللساني الحديث ، ويسعى للإجابة على أكبر مُشكلات البحث اللساني ، والتّفكير عموماً ، وأبرزها قضيّة " المعنى " ، وطُرق التّواصُل ... وبالنّظر إلى فكرة التّراكم العلمي ، وتطوّره عبر الأجيال يُمكن القول إنّ نظريّة التّداوليَّة ليست نتاجاً غربيّاً صِرفاً ، بل يمكن أن نعتبرها تابعاً لما بحثه العرب في هذا المجال وفي مقدِّمتهم " الجاحظ " في كتابه " البيان والتَّبيين " ، الذي تناول من خِلاله مختلف مباحث الدَّرس اللساني التّداولي .

وجاء في البحث – أيضاً – ما يُثبت أنَّ مبادئ التَّفكير التّداولي ، ومنها (القصديَّة ، التَّلفُّظ ، الأفعال الكلاميَّة ، الحجاج ، التَّاثير ... إلخ) كلُّها حاضرة في كتاب " البيان والتّبيين " وإن كانت في لباسٍ مصطلحيّ مختلف ، وهي – جميعُها – قد بُحثت في تُراثنا العربي ، غير أنَّ البحث فيها ، لم يكُن مقصوداً دائماً لذاته ولكن كثيراً ما قُصد به غيرُه . ممَّا ليس ببعيدٍ عن غاية التَّداوليَّة ، وهو (إدراك المعنى في بُعده التَّواصُلي) ، أو ما سمَّاه الجاحظ ب (الفهم والإفهام) ، أو (البيان والتَّبيين) ...

وتبقى المقاربة التَّداوليَّة للنَّصّ التُّراثي ذات إشكاليَّات متعدِّدة ، أبرزها ، تضخُّم جانب التَّنظير ، وعدم مُسايرته لما يجب من التَّطبيق ، والتَّفعيل لمختلف الجوانب التَّأصيليَّة ، وكذا عدم اكتمال آليَّات التّحليل التّداولي ، واختلافها من باحثٍ لآخر ، فضلاً عن إشكاليَّات أخرى كإشكاليَّة (الإسقاط) ، الذي لم يسلم منه بحثُنا هذا ، مع اعتبارنا لوُجُوب استعمال (الإسقاط) كمرحلة أوَّليَّة ، نمتلك من خلالها جهازاً مفاهيميّاً عربيّاً خاصّاً ، يكون الأساس لوضع نظريَّة تداوليَّة عربيَّة عموماً ، أو جاحظيَّة ، انطلاقاً من وصف " محمّد العمري " – الذي بدأنا به بحثنا – وهو أنَّ « التّداوليّة الحديثة بُعدٌ " جاحظي " في أصله ... » .

ونختم بحثنا بما بدأ به " الجاحظ " كتابه بالقول : " اللهم إنّا نَعوذ بك من فِتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التَّكلُّف لما لا نُحِسن كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن ، ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر، كما نعوذ بك من العِيّ والحَصَر " . وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيِّدنا محمّد ، وآله الأطهار ، وصحبه الأبرار .

المصادر والمراجع :

---

[1] – انظر : العمري ، محمَّد : البلاغة العربيَّة ، أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشَّرق ، المغرب ، 1999 م ، ص : 214 .

[2] – انظر : ابن خلدون ، وليّ الدِّين عبد الرّحمن بن محمّد : مقدّمة ابن خلدون ، تحقيق : عبد الله محمّد الدّرويش ، الطّبعة الأولى ، دار البلخي ، دمشق ، سوريّة ، 2004 م ، ص : 376 - 377 .

[3] – طه ، عبد الرّحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، الطَّبعة الثَّانية ، المركز الثّقافي العربي ، الدّار البيضاء ، 2000 م ، ص : 24 .

[4] – صحراوي ، مسعود : التّداوليَّة عند العلماء العرب ، دراسة تداوليَّة لظاهرة " الأفعال الكلاميَّة " في التُّراث اللساني العربي ، الطَّبعة الأولى ، دار الطَّليعة ، بيروت ، لبنان ، تموز (يوليو) ، 2005 م ، ص : 06 .

[5] – الطّبطبائي ، سيّد هاشم طالب : نظريَّة الأفعال الكلاميَّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيِّين العرب ، ، د ط ، جامعة الكويت ، الكويت ، 1994 م ، ص : ه

[6] – انظر : سويرتي ، محمَّد : اللغة ودلالاتها ، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي ، مجلّة عالم الفكر ، منشورات المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب ، دولة الكويت ، مج 28 ، ع 03 ، يناير/ مارس 2000 م ، ص : 30 .

[7] – انظر : طه ، عبد الرّحمن : تجديد المنهج في تقويم التُّراث ، الطّبعة الثّانية ، المركز الثّقافي العربي ، الدّار البيضاء ، المغرب ، ص : 243 .

[8] – علوي ، حافظ إسماعيل : تجلّيات اللسانيّات في الثّقافة العربيَّة ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة ، جامعة الحسن الثّاني ، كلّيَّة بنمسيك للآداب ، ص : 216 .

[9] – انظر ما كتبه كلٌّ من : جبر ، جميل : الجاحظ في حيـــاته وأدبه وفكره ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1968 م ، ص : 149 . و بوملحم ، علي : المناحي الفلسفيَّة عند الجاحظ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، 1994 م ، ص : 466 .

[10] – بيلات ، شارل : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، دار اليقظة العربيَّة للتَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ، دمشق ، سورية ، 1961 م ، ص : 07 .

[11] – الحاجري ، طه : الجاحظ حياته وآثاره ، دار المعارف ، الإسكندريَّة ، مصر ، ص : 431 .

[12] – أمين ، أحمد : ضُحى الإسلام ، كلمات عربيَّة ، القاهرة ، مصر ، 2011 م ، 01 / 351 .

[13] – الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السَّلام محمَّد هارون ، الطّبعة السَّابعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر ، 1998 م ، ص : 07 .

[14] – انظر : البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ص : 05 .

[15] – Cathrine Kerbrat-Orecchéoni ; Où en sont les actes de langage ? in : L’information grammaticale , Paris , N° 66 , Juin 1995 , p 05 .

[16] – انظر : لهوميل ، باديس : التّداوليّة والبلاغة العربيّة ، مجلّة المخبر ، العدد السّابع ، قسم الآداب واللغة العربيّة ، جامعة محمّد خيضر ، بسكرة ، 2011 م ، ص : 160 .

[17] – هناك – من الغربيِّين – من يرى أنَّ أوستين كان مسبوقاً لا سابقاً في وضع مبادئ التَّفكير التّداولي ، انظر المقال القيِّم لـــــ : بريجيت نيرليش و دافيد د. كلارك : التَّداوليَّة قبل أوستين : واقعٌ أم تهيُّؤ ؟ ، ترجمة : حافظ إسماعيلي علوي ، مجلّة سِمات ، العدد 02 ، جامعة قطر ، ماي 2014 م .

[18] – انظر : البيان والّتبيين ، مصدر سابق ، ص : 76 .

[19] – المصدر السَّابق ، ص : 75 .

[20] – انظر : مجلّة الموقف الأدبي – مجلّة أدبيّة شهريّة تصدر عن اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق – العدد : 399 ، تموز 2004 م .

[21] – انظر : بحـــيرى ، سعيد حسن : علم لغة النصّ المفاهيم والاتّجاهات ، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع ، الطّبعة الأولى ، القاهرة ، مصر ، 2004 م ، ص : 23 .

[22] – انظر : صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النصّ ، عالم المعرفة ، 164 ، المجلس الوطني للثّقافة والآداب والعلوم ، الكويت ، 1992 م ، ص : 21 .

[23] – انظر : أحمد المتوكّل : الوظائف التّداوليَّة في اللغة العربيَّة ، الطَّبعة الأولى ، الجمعيَّة المغربيَّة للتَّأليف والتَّرجمة والنَّشر، الدَّار البيضاء ، المغرب ، 1985 م ، ص : 10 .

[24] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، ج 02 ، ص : 75 .

[25] – المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 104 .

[26] – المصدر السَّابق ، ج 02 ص : 40 .

[27] – المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 42 .

[28] – المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 95 .

[29] – المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 79 .

[30] – انظر – مثلاً – كتاب : صحراوي ، مسعود : التّداوليّة عند العلماء العرب ، مرجع سابق .

[31] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، ج 02 ، ص : 250 .

[32] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 403 .

[33] – المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 220 .

[34] – المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 76 .

[35] – الوعر ، مازن : قضايا أساسية في علم اللّسانيات الحديث ، الطّبعة الأولى ، مطبعة العجلوني ، دمشق ، سورية ، ص : 31 .

[36] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، ج 01 ، ص : 146 .

[37] – وهبه ، طلال – الأبيض ، حسن : علم التّركيب الوظيفي ، ص : 145 – 146 .

[38] – المرجع السَّابق ، ص : 143 .

[39] – انظر : الجاحظ ، البيان والتّبيين ، ص : 10 .

[40] – المصدر السَّابق ، ص : 10 .

[41] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، المصدر السَّابق ، ص : 12 .

[42] – المصدر السَّابق ، ص : 12 .

[43] – المصدر السَّابق ، ص : 12 .

[44] – مشبال ، محمّد : البلاغة والسّرد ، منشورات كلّيّة الآداب – تطوان ، الطّبعة الأولى ، المغرب ، 2010 م ، ص : 06 .

[45] – المرجع السَّابق ، ص : 168 .

[46] – المرجع السَّابق ، ص : 48 .

[47] – المرجع السَّابق ، ص : 48 .

[48] – الجاحظ : البيان والتّبيين ، المصدر السَّابق ، ج 02 ، ص : 75 .

[49] – انظر : صفحة الغلاف للكتاب .

[50] – الجاحظ : المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 92 .

[51] – المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 139 .

[52] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 77 – 78 .

[53] – المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 78 .

[54] – المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 81 .

[55] – الجاحظ ، البيان والتّبيين ، المصدر السَّابق ، ج 01 ، ص : 36 .

[56] – تاريخ بغداد : 12 / 214 ، 215 . نقلاً عن : عبد ربّه عيد ، فوزي السيّد : [2005 م] ، المقاييس البلاغيّة عند الجاحظ في البيان والتّبيين ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، مصر ، ص : 39 – 40 .